الهجرات العربية وآثارها التربوية والتعليمية على السودان

[دولة سنار أنموذجاً]

إعداد الدكتور – أحمد عيسى محمود حماد – أستاذ مساعد – كلية التربية – جامعة سنار

المستخلص:

الدراسة بعنوان الهجرات العربية وآثارها التربوية والتعليمية على السودان [سلطنة الفونج أنموذجاً].

وقد تطرق الباحث لطرق الهجرات العربية وأسبابها، والآثار التربوية والتعليمية، والوسائط التعليمية، التي ظهرت في تلك الفترة، والمشكلة التي واجهت الباحث هو قلة المراجع في الموضوع، وكذلك قلة الباحثين فيه، وقد استخدم الباحث المنهج البحث التاريخي الوصفي لحل هذه المشكلة، والحدود المكانية للدراسة هي دولة سنار، والزمانية امتدت من بداية الدولة حتى سقوطها، وقد توصل الباحث لعدة نتائج منها: الأثر الفعّال في مجال التربية والتعليم، الذي نشأ في سلطنة الفونج جاء مع الهجرات العربية والدين الإسلامي فكانت الوسائط التعليمية مثل المسجد والخلوة والزاوية صورة طبق الأصل لما هو موجود في البلاد العربية التي جاءت منها الهجرات العربية.

وبناءً على النتائج فقد أوصى الباحث بعدة توصيات منها: تسليط مزيد من الضوء حول الموضوع.

Abstract

This research conducted to investigate the Arabic migrations and it is Educational effectiveness on the Sudan. The researcher took the Foung kingdom as model to implement on it the area of study . the third one is concerned with the result and recommendation .The researcher discussed the waves, ways and the directions, the causes, and it is Educational effectiveness on the Sudan at that era . The researcher followed the historical descriptive method ,to investigate the references and the resources and the researcher used them in order to arrive to the result of the research. The study concluded with many results the most importance were : The really effectiveness in field of Educational and learning ,which established early in the foung kingdom came with that Arabic migrations to the Sudan at that time and Islamic foundations and places for worship such, as we are seeing today ,they were original copy the same like the places ,which Arab migrations came from for example (Mosque .Khallwa…etc).Based on the light of the results ,the researcher recommended by the following: To draw the light and making more

researches on such this topics .

المقدمة

تاريخ السودان زاخر بالمواضيع التي تستحق الدراسة والتحليل، وذلك لتعدد الحقب التاريخية، وتنوع المجتمعات والحكومات التي تتعاقب على السودان، منذ أقدم العصور وحتى وقتنا الحاضر، ومن تلك الحقب التاريخية الفترة ما بين [1504 – 1821م] وهي الفترة التي سيطرت فيها سلطنة الفونج الإسلامية على البلاد، وتتميز سلطنة الفونج بسعيها الدؤوب لخلق وحدة جغرافية سياسية، وتكوين النواة الأولى لسودان اليوم، فجاءت سلطنة الفونج لسدة الحكم وكان لها الأثر الواضح في شتى ضروب الحياة المجتمعية والثقافية والسياسية، والتربية والتعليم.

أهمية الموضوع:

تنبع أهمية الموضوع، في تركيزه على السودان، واختيار سلطنة الفونج موضوعاً للدراسة يصب في خانة الفترة الزمنية الطويلة، التي حكمت فيها البلاد، بكل المقاييس فترة كافية لإخضاع التجربة للتقويم الموضوعي، ففي فترة الفونج بلغ التفاعل والتلاقح بين الأجناس والثقافات مداه، فجاء ميلاد المجتمع السوداني تعبيراً عن هذا التماذج بين المجتمعات العربية، والجماعات المحلية.

وكذلك أيضاً تأتي الأهمية في أن سلطنة الفونج، تأسست في الوقت الذي انهارت فيه الدولة الإسلامية في الأندلس من جراء التكالب الصليبي والاستعماري عليها، فنشأت

دولـة إسـلامية فـي قلـب القـارة الإفريقيـة متحديـة الغـرب وصـلفه وعنجهيتـه فـي محاربـة الإسلام.

مشكلة الموضوع:

تكمن مشكلة الموضوع في الغموض الذي اكتنف تلك الفترة، وخاصـة أن الفترة تعتبـر نقطـة فارغـة فـي السـودان مـن الناحيـة الديمغرافيـة، ولـم تجـد حظهـا مـن الدراسـة وخاصة من السودانيين، وأيضاً هناك من الباحثين الأجانب من تناول تلك الفترة ولكنهم لم ينصفوا تلك الفترة وذلك لشيء في نفس يعقوب.

أسئلة الموضوع:

السؤال المحوري الذي يدور حوله الموضوع هو: هل للهجرات العربية دور فعّال وأثر واضح في السودان من الناحية التعليمية والتربوية؟. وهناك أسئلة أخرى متعلقة بهذا السؤال هي:

أولاً: هل التعليم الديني لسلطنة الفونج لبى طموحات السكان؟

ثانياً: هل الوسائط التعليمية في سلطنة الفونج كان وليدة العبقرية، أم أتت بها الهجرات العربية من أماكن نزوحها للسودان؟.

أسباب اختيار الموضوع:

تنبع أهمية الموضوع من أهمية الفترة التاريخية، التي عاشها السودان، لأن في هذه الفترة نضج التكوين المجتمعي للسودان، وذلك بدخول العرب السودان ومعايشتهم للأهالي المحليين، حاملين معهم الدين الإسلامي الذي غيّر مسار الثقافة المحلية، من دين ولغة، لأن القبائل العربية بالرغم من التغير الذي أحدثته في التركيبة الديمغرافية، أيضاً كان لهم الدور المهم في نقل الإسلام كدين جديد، لأن العروبة غير أنها عرق، أيضاً وسيط لغوي وثقافي.

منهج البحث:

استخدم الباحث لهذا الموضوع، منهج البحث التاريخي الوصفي.

حدود البحث:

الزمانية: الفترة الزمانية ما بين 1504م – 1821م.

المكانية: الرقعة الجغرافية من الشلال الثالث شمالاً، حتى فازوغلي جنوباً، ومن سواكن على البحر الأحمر شرقاً، حتى الشواطئ الغربية للنيل الأبيض غرباً.

الفصل الثاني:

مقدمة:

علاقة العرب بالسودان علاقة موغلة في القدم، ولم يشكل البحر الأحمر، في يوم من الأيام، حاجزاً يمنع الاتصال بين شبه الجزيرة العربية وبلاد السودان، فالجزيرة العربية

بطبيعتها أرضاً قاحلة، والنشاط الاقتصادي الذي يعتمد عليه أهلها نشاط رعوي وتجاري، حيث لا تسمح الظروف الجغرافية بممارسة النشاط الزراعي، ومن ثم كان لابد للعرب من حياة التنقل والترحال، وعلى هذا الأساس هاجرت مجموعات كبيرة من العرب إلى شرق القارة الإفريقية قبل ظهور الإسلام.

أولاً: أسباب دخول العرب السودان:

هناك عدة عوامل أدت إلى هجرة العرب إلى بلاد السودان، والاستقرار فيه، نجملها في الآتي:

أولاً: تشابه الأحوال المناخية بين السودان – خصوصاً مملكة المقرة وأراضي البجة – وشبه الجزيرة العربية ما يجعل البيئة صالحة لبقاء العرب، ومزاولة حرفة الرعي التي ألفوها.

ثانياً: اشتهرت الأراضي السودانية، بمعادن الذهب والزمرد مما دفع المجموعات العربية للهجرة إلى السودان رغبةً في الحصول على الذهب (لأن أرض النوبة مصاقبة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم، وبينهما وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن الذهب)[1]

ثالثاً: الخلافات السياسية التي لازمت الدولة الإسلامية في أزمان مختلفة، أدت إلى هجرة كثير من المضطهدين السياسيين ومغادرتهم لأوطانهم، وكان نصيب السودان وصول

مجموعات منهم، فعند قيام الدولة العباسية (132هـ/750م) مارس الخلفاء العباسيون سياسة عنيفة تجاه الأمويين مما اضطرهم إلى الفرار، ووصلت أعداد منهم واستقرت بالسودان، وقد فرّ مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين مع مجموعة من أنصاره إلى مصر، وقُتِلَ فيها مما جعل أصحابه يزحفون نحو السودان، وصارت الفتن بين بني أمية وبني هاشم، ونتيجة لهذا الصراع هاجر الأمويون في أنحاء الدولة الإسلامية، كما كان للسياسة العرقية التي انتهجها العباسيون بمحاباة وتفضيل الأتراك والاستغناء عن خدمات العرب، كان لها أثرها في هجرة كثير من الأعراب من مصر نحو السودان فراراً من الاضطهاد السياسي، كما كان لسياسة المماليك (1250 – 1517م) الأثر الواضح في ازدياد موجات الهجرة نحو السودان، لسياساتهم الاقتصادية التعسفية، التي أثقلت كاهل الشعب بالضرائب، مما دفع العرب للهجرة[6].

ثانياً: طرق دخول العرب السودان:

أولاً: الطريق الشرقي:

لما ذهبت جموع العرب المسلمين إلى جنوبي مصر في القرون التالية للفتح الإسلامي، لم يكن السودان بلاداً مجهولة لهم، وكان نهر النيل الطريق التجاري للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية في طريقهم كفاتحين أو مهاجرين. ولم يكن العرب المهاجرون تجاراً كلهم، بل كان فيهم المتنقل سعياً وراء

المراعي الخصبة والماء والكلأ، فوجدوا في فجاج السودان المترامية ما ينشدونه، وهم في ربوعه بعيدون عن دفع الخراج، وفي مجال الرقيق والذهب والجواهر متسع أمامهم[4].

أما عن علاقة العرب بالبجة بعد الإسلام، فمن الثابت أن جماعة من العرب (هوازن) عبرت البحر الأحمر أعقاب فتح مصر واستقرت في أرض البجة، وتلت هذه الجماعة جماعة أخرى، قدمت من حضرموت أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 73هجرية واستقرت بين البجة وأصبحت جزءاً منهم، كما أن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة في منتصف القرن الثاني الهجري هرباً من مذابح العباسيين، واستقر عدد منهم في ميناء باضع (مصوع) يذكر (بلوس في مؤلفه قصة سواكن) أنه عثر في ميناء باضع (مصوع) عن مقابر للأمويين أثناء قيامه بحفريات هناك –كما أن الآثار دلت على وجود شواهد قبور إسلامية وعلى أثر المسجد في مدينة سنكات، يستنتج أنها كانت طريق للفارين من الأمويين، فبلاد البجة إذاً مجالاً حيوياً لقبائل عربية مسلمة بعضها جُذِبَ ببريق معدن الذهب وبعضها تحت ضغط قبائل أخرى وبعضها تخلف بعد نجاح حملات تأديبية، وبعضها عبر البحر الأحمر واستقر على الساحل الغربي وبعضها تعقبت موارد المياه والشعب لإنعاسها وأغنامها، وبعضها لجأ للصحراء متوغلا فيها خوفاً من سيوف العباسين[12].

فلقد أدى استقرار القبائل العربية التي تدين بالإسلام ومنها قبيلة ربيعة إلى تسرب الإسلام إلى البجة، والشاهد على ذلك تلك المساجد التي بنيت في بلادهم والتي نصت المعاهد المعقودة في (216هجرية) بين عبد الله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز قائد البجة على حمايتها ورعايتها[12] كما يؤكد وجود بعض المجموعات القبلية كالبني عامر التي تتحدث لغة التقراي وهي لغة أساسية وازدادت تلك الصلة أهمية وعمقاً بظهور الإسلام الذي أعطاها السند الروحي والمادي فتدفق العرب في أعداد كبيرة حتى وقفوا على أبواب النوبة والبجة[18].

وفي أثناء تدفق العرب نحو أرض المعدن ببلاد البجة، نجح عبد الله بن عبد الحميد العمري الذي اشتهر بالتعدين بمعاونة جهينة وربيعة في توطيد نفوذ العرب السياسي تحت قيادته، وربما وضع ذلك نواة أول أمارة عربية شمالي شرقي السودان، وبعد فترة تمكنت قبيلة ربيعة بزعامة بشر بن مروان 943م الذي اشتهر بصاحب المعدن من بسط نفوذها على أجزاء كبيرة من تلك المنطقة، وبعد أن تحالفت مع قبائل مضر ويمن وتصاهرت مع القبائل البيجاوية ولاسيما الحدارية، فمكنت لنفسها بين البجة بفضل نظام الوراثة عن طريق الأم الذي كان متفشياً في أجزاء كبيرة من السودان الشرقي[18].

فقد لعب ثغر عيذاب دوراً هاماً، فقد كانت عيذاب أكبر مركز تجاري ربط في مرحلة تاريخ التجارة بين الهند واليمن ومصر وارتريا والحبشة، كما أن المسيحيين من

ارتريا وأثيوبيا كانوا يحجون إلى بيت المقدس في فلسطين عن طريق ميناء عيذاب، وكذلك كان يفعل اليهود الفلاشا، ويقول المستر وايلد بوجود طريق قديم جداً من مروي إلى (رأس بناس) يخترق سواكن – بربر حتى محمد قول، وفي الطريق علامات كان يتبعها الحجاج الأحباش الذين كانوا يؤمون القدس عن طريق البادية بدلاً من طريق سواحل البحر الأحمر الذي كان شديد الخطر عليهم، وكثيراً ما ذبحت قوافلهم اليهودية والمسيحية بين قبائل البجة الوثنية[18].

وذكر المقريزي الشيء الكثير عن حياة البجة وعاداتهم وتقاليدهم، وذكر أيضاً أنهم كانوا يقومون بنقل الحجاج من ثغر عيذاب عبر البحر الأحمر إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة وأنهم كانوا يستخدمون في ذلك الجلاب (السفن التي كانوا يصنعونها بأيديهم)، وعرفت القبائل البيجاوية عبر التاريخ بأنها قبائل محاربة. وقد اهتم كثير من المؤرخين بأخبار العرب والمعارك الطاحنة التي خاضتها هذه القبائل ضد الفراعنة والبطالسة والرومان وملوك أكسوم، استمرت هذه الحرب إلى أن دانت دولة الرومان على يد الجيش العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي فكانت المعاهدات من أشهرها (معاهدة البجة مع الدولة العباسية)[12].

عمل بموجب هذه المعاهدة خمسة عشرة عاماً المسلمون يجوبون هذه البلاد من جدة إلى أسوان متاجرين ومقيمين ومجتازين وحاجين، ومساجد المسلمين آمنة ومحمية، لا

شك أن هذه المعاهدة تعطي المسلمين الحرية في نشر الدعوة بين أهالي البجة خصوصاً وأن الإسلام دين سلم وينتشر بالسلم، والحق أنه قبل أن تتم عملية نشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وقبل أن تستأصل العادات والمعتقدات القديمة بدأ الزحف الصوفي[3].

ثانياً: الطريق الشمالي:

لما فتح المسلمون مصر سنة (21هجرية) واجهوا من نوبة مملكة المقرة الشمالية موقفاً عدائياً سافراً تمثل في مشاركتهم البيزنطيين في القتال ضدهم[11]. كما تمثل في شنهم غارات متتالية على حدود مصر الأمر الذي هدد الأمن هناك[3] ، مما حدا بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأمر واليه عمرو بن العاص بوضع حد لهذا الخطر النوبي[10] فوجه عمرو بن العاص عدداً من الحملات واجهها النوبيون بعنف شديد[2] فلم يتمكن عمرو بن العاص رضي الله عنه إحراز نصر حاسم عليهم حتى عُزِلَ عن مصر سنة (25هجرية) بأمر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه[2] وانتهت بذلك صلاته ببلاد النوبة.

وما أن تولى والي مصر الجديد عبد الله بن أبي السرح الحكم هناك حتى واصل جهوده الرامية لوضع حد للخطر النوبي الذي يتهدد الحدود الجنوبية لأمارته، وتمثلت هذه الجهود في عدد من الحملات واجهها النوبيون بعنف شديد[13] قال أبو ربيعة حدثني الحارث بن يزيد قال: اقتتلا قتالاً شديداً: أي عسكر عبد الله بن أبي السرح والنوبة.

وأصيبت يومئذ عين معاوية بن خديج وأبي شهر أبراهة الصباح ، وحيويل بن ناشرة فسماهم المسلمون (رماة الحدق).

وكانت أكبرها وآخرها حملة قادها بنفسه في عام (31هـ – 651م) وذلك لوضع حدتها لهذا الخطر، ولتأمين الطريق التجاري الذي عطلته الحروب وهددته الغارات النوبية المستمرة، وهؤلاء التجار كما نعلم هم الذين يحملون الدعوة وأهم أداة في ذلك الوقت نشر الإسلام بين الأوساط السودانية، وكذلك لحماية الحدود الجنوبية للأمارة التي ضُمت حديثاً لدولة الخلافة الراشدة[6].

واصل عبد الله مسيرة حملته حتى دنقلا عاصمة النوبيين فأحكم عليهم حصاراً قوياً ورماهم بالمنجنيق فتداعت المدينة وخرج ملكهم قلدرون (31هـ – 652م) يطلب الصلح والأمان، فاستجاب عبد الله بن أبى السرح لداعي الصلح فوقع معهم معاهدة باسم (البقط) اختلفت في طبيعتها وبنودها عن المعاهدات التي ألفها المسلمون وطبقوها في تعاملهم مع غير المسلمين في ذلك الوقت[13]. بل نظمت العلاقات بضمانها نسبياً لأمن الحدود والتجارة لحوالي ستة قرون.

وقد ساهم التجار المسلمون أثناء توغلهم في مملكتي المقرة وعلوة المسيحيتين في الدعوة للإسلام وفي نفس الوقت تزامن ذلك مع تدفق القبائل العربية في السودان منذ

القرن التاسع الميلادي بحثاً عن المراعي والتي تشابه بيئة السودان مع بيئتهم في الجزيرة العربية ، كما أن مصر والتي تنظر إلى الأعراب نظرة عدائية[10].

وقد بلغ هذا الوجود العربي المسلم ذروته عندما اشتركت بعض القبائل العربية في الحملات العسكرية ضد النوبة المسيحية وكانت هذه القبائل العربية يقودها هدفان: أحدهما نشر الإسلام، والثاني المشاركة في الاستلاب، كما أن البحث عن مراعى جديدة أمر مرغوب لهذه القبائل، وقد اكتملت السيادة الإسلامية أثر استقرار هذه القبائل العربية واختلاطها وتزاوجها مع العناصر المحلية[15].

ثالثاً: الطريق الشمالي الغربي:

الجهة الشمالية الغربية أو الطريق الليبي، ولعل هذا الطريق أصبح مصدراً للثقافة العربية بعد الإسلام[14].

التأثير التربوي والتعليمي للهجرات العربية:

هناك ظروف كثيرة ساعدت على دخول الإسلام السودان منها: موقع السودان الجغرافي فمن المعلوم بالضرورة أن السودان محاط بأمم إسلامية مثل مصر واليمن والحجاز كما توجد بشماله من جهة الغرب شعوب بلاد المغرب، وكان اتصال هذه الأقطار الإسلامية بالسودان أمراً سهلاً من ناحية ومن ناحية أخرى كان أمراً حتمياً فرضته ظروف تلك الأقطار أما طلباً للتوسع ونشر الدين الإسلامي وأما بحثاً عن الأمان

والاستقرار، كما كان لبيئة السودان الطبيعية التي هي أشبه ما تكون بيئة الجزيرة العربية أثراً في جلب كثير من القبائل العربية المسلمة التي وجدت في السودان أرضاً طيبة بما حباها الله به من الأمطار والأنهار وفي نبتها من الأشجار والثمار وفي جوها من الصفاء والاعتدال، إذا أضفنا إلى ذلك الوضع الاجتماعي للقبائل السودانية النوبية والبجاوية والنيلية التي كان بعضها يعتنق المسيحية وبعضها يعيش في وثنية بدائية، لذا استطاعت هذه القبائل العربية التأثير في هؤلاء جميعاً وجذبهم إلى الإسلام من غير قتال ولا سيف وهذه ميزة في دخول الإسلام إلى السودان، ومما ساعد على دخول الإسلام إلى السودان الفقهاء والمتصوفة الذين وفدوا من مصر والحجاز واليمن والعراق والمغرب الذين يحملون هَمْ الإسلام ونشر تعاليمه وكذلك نشر الفكر الصوفي الذي يركز على طهارة القلب وتنوير الوجدان وصولاً إلى أعلى مراتب الدين وهو مقام الإحسان، فاستقبلهم السلاطين والخيرين من أهل السودان فأكرموهم وأحسنوا وفادتهم وقدموا لهم الهدايا واقطعوهم الأراضي وشجعوهم على أداء مهمتهم.

وبقيام دولة الفونج الإسلامية نشطت المؤسسات التعليمية التي أساسها المسجد والخلوة والمسيد. وكانت لها مناهجها الدراسية المتميزة، وقام الفقهاء والمتصوفة بواجبهم تجاه هذه المؤسسات بتدريس العلوم الإسلامية والعربية فيها، وصارت لمعلميها امتيازات

مادية ومكانة اجتماعية. وباتوا مصدر احترام الملوك والعامة، وفي رحابها التقى الصوفية والفقهاء، أصبحت مراكز إشعاع للتعليم الإسلامي[16].

المؤثرات العلمية والثقافية في عهد الفونج:

تميز عهد الفونج بصلات علمية وثقافية كبيرة بين الممالك التي ظهرت فيه من جهة، وبينها وبين كل من مصر والحجاز والعراق والمغرب ووداي، من جهة أخرى. (فقد كان الحج والتجارة بين الحجاز والسودان كانا من أكبر ما هيأ للسودان نشر الدعوة الإسلامية، وكان الحجاج السودانيون يشجعون علماء الحجاز على الرحلة إلى بلاد الفونج، كما أن كثيراً من الحجاج السودانيين كانوا يتلقون العلم في مكة والمدنية)[9].

ومن ناحية أخرى فإن ملوك الفونج، وسلاطين الفور أنفسهم قد سعوا إلى الأزهر وعلمائه، وكان علماؤه يجدون عندهم ترحيباً وحفاوة، إذ كانوا يرسلون إليهم الهدايا ويحببونهم في زيارة بلادهم، وما نود أن نخلص إليه هو أن عهد الفونج قد شهد مؤثرات علمية وثقافية من جهات عديدة حيث تميز الأثر الحجازي والمغربي والعراقي بغلبة الطابع الصوفي، أو الصوفي العلمي بمعنى أن العلماء الذين وفدوا من هذه البلاد أو السودانيين الذين درسوا في الحجاز ثم عادوا إلى السودان قد اهتموا في بداية أمرهم بإنشاء الطرق الصوفية، والتي من خلالها يعلمون الناس أمور دينهم بعد أن يسلكوا الطريقة الصوفية المعينة ويكونوا من مريديها[8].

أما الأثر المصري فقد كان يغلب عليه الطابع التعليمي، حيث أن العلماء الذين تخرجوا في الأزهر من السودانيين، قد اتجهوا إلى تعليم الناس مباشرةً، فاهتموا لذلك بإقامة المساجد التي شهدت حلقات العلم الكبيرة، وأن بعضهم كان له أسلوب مميز عرفت به مدرسته[8].

غير أن الملوك والسلاطين في هذا العهد مع تعظيمهم للعلم وإكرامهم للعلماء، ورفع شأنهم، إلا أنهم لم يتدخلوا بصورة أو بأخرى لوضع سياسة معينة يسير عليها التعليم، ذلك أن إنشاء مؤسسات التعليم لم يكن هماً من هموم حكومات هذه الممالك، ولكنهم كانوا يقدمون بعض الإعانات المادية والعينية للمؤسسات التعليمية وللعلماء وطلاب العلم[9].

واقع التعليم والعلماء في عهد الفونج:

نشأ التعليم في هذا العهد متصفاً بصفتين[9]:

الأولى: أنه تعليم شعبي بمعنى أن حكومات تلك الممالك والسلطنات لم يكن لها يد في إنشائه.

الثانية: أنه تعليم إسلامي لغته العربية، سار على النهج الموجود آنذاك في كل من مصر والحجاز، والعراق والمغرب، باعتبارها البلدان التي وفدت منها المؤثرات العلمية والثقافية إلى السودان.

وظل ذلك التعليم لأكثر من ثلاثة قرون يسير على الطريقة التي يختطها لنفسه كل عالم أو صاحب مدرسة، ولذلك فإن العالم أو الفقيه كان هو محور العملية التعليمية والتربوية، ينتقل إليه الدارسون حيثما وُجِد ويتوافدون إليه من كل حدبٍ وصوبٍ، وكان العلماء في ذلك الزمان يربطون ربطاً وثيقاً بين العلم والعمل به، ولأنه ليس ممكناً الإحاطة بكل أولئك العلماء الذين ظهروا في عهد الفونج بممالكه الإسلامية، وانتشروا عبر أكثر من ثلاثة قرون في مدن تلك الممالك وقراها، فإننا نعرض لنماذج منهم يعطون فكرة واضحة عن نوعية أولئك العلماء، وعن المواد التي قاموا بتدريسها لتلاميذهم، والعلوم التي أجادها بعضهم إلى درجة أن اعتبر متخصصاً، ومن أشهر هؤلاء[18]:

أولاد جابر:

أولاد جابر ينتمون لأسرة دينية كبيرة، ترجع أصولها إلى غلام الله بن عايد الركابي، وهو رجل من اليمن (قدم إلى دنقلا في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وتزوج امرأة من الدناقلة وانجب منها ولدين هم رباط ركاب)[5]. غير أن شهرتهم ترجع إلى أربع من أحفادهم، كان لهم تأثير عظيم في الحياة العلمية إبان عهد الفونج، ويعتبر إبراهيم البولاد أكثر أولاد جابر شهرةً لما له من فضلٍ في تعليم بقية أخوته، وأن تلاميذه أصبح لهم شأن في مجال العلم وهو أول من درس كتابي: مختصر خليل بن اسحق، ورسالة أبي

زيد القيراوني في الفقه المالكي وهما كتابان على مستوى متقدم في دراسة الفقه، لابد للطالب كي يجلس لدراستهما من أن يمر بمرحلة دراسية تسبق ذلك.

ثانياً: الشيخ الزين بن الشيخ صغيرون:

وإذا تجاوزنا أولاد جابر فإننا نجد من العلماء الآخرين من كانت له جهود كبيرة وشهرة واسعة في نشر العلم مثل الفقيه: الشيخ الزين بن الشيخ صغيرون الذين أمتد به العمر، ونال شهرة واسعة جعلت طلاب العلم يتوافدون عليه من أصقاع بعيدة حتى أن طلاب حلقاته بلغوا ألف طالب، كما يذكر صاحب الطبقات حيث يقول: (... وبالجملة فالبلاد إلى دار "صليح" تجد فقهاءها وقضاتها من تلامذته وتلامذة تلامذته إلى أن تغير الزمان)[15]. يبدو من كلام ابن ضيف الله أن هذا الشيخ العالم قد تجاوز تأثيره العلمي بلاده إلى ما جاورها من بلدان، إذ أن دار صليح هذه –كما يذكر عبد المجيد عابدين – (هي بلاد وداي وتقع في المنطقة التي كانت تعرف بالسودان الفرنسي أو الأقاليم الجنوبية من ليبيا الممتدة غرب دارفور على طول السافنا إلى حوض نهر النيجر)[9].

ثالثاً: أرباب العقائد:

والقارئ لكتاب ابن ضيف الله يجد نماذج كثيرة من العلماء في ذلك الزمان منهم من تخصص في علم معين مثل: أرباب العقائد بن عوف الذي تخصص في علم العقائد، وبرع فيه حتى لُقِبَ "بأرباب العقائد"، ومنهم من كان ذا ثقافة موسوعية جمع بين علوم

الطب والشعر، وإجادة الخط، ومعرفة اللغات: العبرانية والسريانية واليونانية، بالإضافة إلى الكيمياء، وعلم النحو وبعض العلوم الأخرى مثل: الشيخ حجازي بن أبزيد بن الشيخ عبد القادر[14].

رابعاً: إبراهيم العمودي:

كذلك عرف العلماء الكتب واقتنوها، بل وظفوها كأحسن ما يكون التوظيف جاء في الطبقات أن (إبراهيم العمودي خطيب سنار، ومدرسها على المذهب الشافعي، كانت له خزانة كتب موقوفة على طلبة العلم)[15].

كما أن جهودهم لم تقف عند تحصيل العلوم المعروفة في زمانهم، وتدريسها فحسب، بل إنهم ألفوا الكتب على طريقة أهل زمانهم، كما أن منهم مَنْ منحوا تلاميذهم شهادات مكتوبة تبيّن قدر هؤلاء التلاميذ، وما بلغوه من المعرفة التي يستطيعون بها أن يقوموا بالتدريس، وتأذن لهم تلك الشهادات بأن يفشوا العلم لطالبيه[15].

وما يتضح من نص هذه "الإجازة" أن الأثر الصوفي واضح الملامح فيها، وأن نصها يربط بين التعليم والتربية ربطاً وثيقاً، فعلى الطالب المتخرج معلم المستقبل أن يكون مربياً يقتدى بسلوكه قبل أن يعلم الناس، ويفشي فيهم ما تعلمه من شيخه، إلى جانب أن "الإجازة" تحثه على الاستعداد لأن يكون ملاذاً للفقراء والمساكين مما يشير إلى الدور

الذي كان يقوم به أولئك العلماء وهذا يدعم ما أشرنا إليه من أن العلماء في هذا العهد كانوا محور العملية التعليمية والتربوية وأساسها.

المؤسسات التربوية في عهد الفونج:

أولاً: المسجد:

إن مؤسسات التربية الإسلامية في هذه الحقبة من تاريخ التعليم في السودان لا تختلف عن مثيلاتها في البلاد الإسلامية الأخرى، ولعل أقدم المؤسسات التربوية في هذه العهد هي المساجد، ولا غرو في ذلك، إذ أن التربية الإسلامية قد ارتبطت بها منذ فجر الإسلام، وتاريخ هذه التربية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد، ولهذا فالحديث عنه هو حديث عن المكان الرئيس لنشر الثقافة الإسلامية[9].

وقد كانت المساجد في السودان أسبق إلى الظهور من غيرها من مؤسسات التربية الإسلامية، ذلك أنها كانت موجودة في السودان قبل عهد الفونج بزمن طويل، فقد جاء في اتفاقية البقط التي تمت بين عبد الله بن أبي السرح أمير مصر في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، وقائد جيش المسلمين على النوبة سنة (31هـ – 651م) وبين عظيم النوبة تلك الاتفاقية التي عُرِفت باسم "البقط" جاء فيها على النوبة (حفظ المسجد الذي ابنتاه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا عنه مصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته)[3]. أما في عهد الفونج فقد كثرت المساجد، وتعددت أغراضها، ومن تلك الأغراض:

الأغراض التعليمية، يقول يوسف فضل: (ولما جمع المسلمون بين التصوف وتدريس علم الظاهر صارت المساجد مسرحاً لنشاطهم التعليمي والتعبدي)[15].

ولهذا نشط العلماء في بناء المساجد والجلوس فيها للتدريس، وكانت الدراسة في المساجد أرقى مستوى مما هي عليه في مؤسسات التعليم الأخرى، ولهذا قامت بالجانب الأكبر في نشر العلم والثقافة الإسلامية في هذه المرحلة (الجمع بين التصوف وعلم الظاهر).

ثانياً: الخلاوى:

أُطلِق لفظ خلوة في السودان على المكان الذي يختلي فيه الشيخ للتعبد والذكر، كما أُطلِق على غرفة الضيافة في المنزل، أو المكان المخصص للرجال، ولا تتردد عليه النساء، وأُطلِق أيضاً على المكان الذي يدرس فيه التلاميذ القرآن الكريم ويتعلمون فيه الكتابة والعلم[7].

والخلاوى ليست هناك جهات رسمية – في هذا العهد – تقوم بإنشائها، فهي (إما أن ينشأها رجل من حفظة القرآن في بيته، يدرس فيها بنفسه، وينفق عليها من عنده لوجه الله تعالى، وإما ينشأها رجل من أهل اليسار في بيته فيؤجر فقيهاً براتب معلوم، وينفق عليه وعلى تلاميذه، وإما أن يشترك في إنشائها والإنفاق عليها أهل البلدة جميعاً، فيجعلون المدرسة إذ ذاك في غرفة تلصق بالجامع)[17].

ولما طغت الصبغة الصوفية على الثقافة الإسلامية في السودان صارت الخلوة أكثر استعمالاً ودلالة على معهد التعليم، بل إن الخلوة كانت بمثابة مركز الإشعاع الروحي والثقافي والاجتماعي في كل قرية، ومن ثم جمعت الخلوة تحت رعاية الشيخ أو الفقيه الصوفي بين وظائف التدريس مبادئ القرآن، وتعلم القراءة والفقه، وتنشئة المريدين في طريق القوم، والعبادة بما فيها صلاة وانقطاع إلى الله. وبذلك أصبح الشيخ أو الفقيه، المحور الذي يدور حوله الطلاب، والمريدون كما يسعى إليه عامة الناس طمعاً في الاستنارة بعلمه، أو الاستئثار بكرامة من كراماته أو متوسلين به لقضاء حاجة[18].

وقد تركت الخلاوى آثاراً تربوية واجتماعية عظيمة في مجتمع ذلك العهد، فعلى سبيل المثال كانت الناحية التربوية قد غرست في الأطفال قيم المجتمع الديني الذي كان سائداً، كالتقوى واحترام الوالدين والكبار، كما غرست فيهم سمات الاستقلال والاعتماد على النفس، والتعاون إلى درجة تصل حد إنكار الذات، فيشب الأطفال وقد تشربوا ذلك كله، قبل أن ينخرطوا في المرحلة التالية من مراحل التعليم فتستقبلهم وهم على استعداد لكي يتفاعلوا مع ما يجدونه فيها من دروس وتربية.

ثالثاً: الزوايا:

الزوايا جمع زاوية، وهي أماكن تجمع بين السكن والعبادة والدرس، وهذا ما يميزها عن المساجد والخلاوى، وقد يطلق عليها اسم الخلوة أحياناً، لأنها غالباً ما تكون

للمتصوفة ينقطعون فيها للعبادة والدرس، غير أنها لم تكن في شهرة الخلاوى والمساجد بدورها المؤثر في حياة المجتمع[18].

مراحل التعليم وأساليبه ومناهجه في عهد الفونج:

مراحل التعليم:

يذهب عبد المجيد عابدين إلى أن للتعليم في هذا العهد مرحلتين، يسمى الأولى منها:

المرحلة الأولية: وهذه يلتحق فيها الطالب للدراسة فيها بعد الانتهاء من الدراسة في الخلوة ويتلقى فيها العلوم النقلية أو بعضها يتلقاها بعض على يد شيخ أو أكثر.

المرحلة الثانية: فيطلق عليها اسم المرحلة العليا، ويرى أنها تبدأ بعد سن المراهقة، وربما تصل مدتها إلى بضع عشرة سنة. وبهذا يغفل مرحلة الخلوة كمرحلة تعليم[9]. أما عبد العزيز أمين فيرى أن مراحل التعليم ثلاثة[8]:-

الأولى: مرحلة التهجي، وتبدأ فور دخول التلميذ إلى الخلوة، حيث يتعلم فيها الحروف الهجائية لفظاً وكتابةً، وأهمية هذه المرحلة تتمثل في أن قراءة القرآن في الخلوة ترتبط ارتباطاً كبيراً بالكتابة، بل هما متلازمتان.

الثانية: هي مرحلة حفظ القرآن الكريم، ويبدأ التلميذ فيها بتلقي قصار السور، ثم يتدرج إلى أن يحفظ القرآن كله.

الثالثة: هي مرحلة العلم حيث يكون الطالب قد هيئ تماماً لدراسة العلوم الأخرى، وهي العلوم الدينية، وما يلحق بها من علوم تعين على فهم النصوص الدينية كالأدب والنحو واللغة، أو شرح العظات والقصص الدينية، أو تاريخ وأيام العرب، والمتعلم لا تتم مرحلة تعليمه إلا إذا أخذ من هذه العلوم جميعاً.

أساليب التعليم:

أساليب التعليم التي كانت شائعة في هذا العهد تنقسم إلى ثلاثة أقسام[18]:

الأول: خاص بالخلوة في مرحلتي التهجي وحفظ القرآن، ويعتمد على التلقين والإملاء واستعمال ألواح الخشب.

الثاني: من أساليب التعليم يختص بالمرحلة العليا، وقد عرفت هذه المرحلة من الأساليب (بالقراءة والشرح والمناقشة، والإملاء) وكان لكل شيخ طريقته التي أعتاد عليها، أو كان يراها مفيدة لتلاميذه.

الثالث: فقد عنى بالرحلة والتنقل على الطريقة العربية الإسلامية التقليدية، كأسلوب للتعلم، لما في ذلك من اكتساب معارف جديدة من خلال التقاء طلاب العلم بعلماء آخرين من البلاد التي يتنقلون بينها.

مناهج التعليم:

مناهج التعليم في عهد الفونج في المرحلة العليا: كانت كالمناهج المعروفة في العالم الإسلامي آنذاك، فبالنسبة لدراسة الفقه الإسلامي كانت دراسة كتابي الرسالة ومختصر خليل في مقدمة الكتب التي يدرسها الطلاب لغلبة مذهب الإمام مالك رضي الله عنه عند السودانيين. كما عرفت مناهجهم كتب اللغة والأدب وعلم العقائد، وكانت أهم الكتب في علم التوحيد مقدمة السنوسي (المتوفي سنة 149هـ) ورسائله في العقائد الكبرى والوسطى والصغرى، وهذه يسمونها (أم البراهين). وكان الكتاب أو المادة المعينة هما المهيمنان على الزمن الذي تستغرقه الدراسة مما جعلهما وحدة المنهج، لأن الكتاب الواحد كانت دراسته تمتد إلى زمن طويل. هذا وقد تميز التعليم في عهد الفونج بعد مظاهر منها[8]:

أ. أن التربية الخلقية كانت دينية محضة، أساسها تقليد الشيخ في سلوكه مع تفهم ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتقاليد الإسلامية، مع غلبة الروح التصوف على الحياة في الخلوة.

ب. ساد التعليم في الخلوة نظام العرفاء: وهو نظام – كما يقول عبد العزيز أمين – (لم يعرف في أوروبا إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر، وكان كشفه ابتكاراً في طريق التدريس، إذ أمكن به تعليم مئات التلاميذ في المدرسة الواحدة، وبمدرس واحد، فهو نظام اقتصادي فيه إعداد للعريف لتحمل المسئولية وتنشأته على الإدارة والإشراف، كما أنه خفف عبء العمل على الفقيه أو الشيخ، فتفرغ لعمل تعليمي آخر، أو للتعبد والتصوف، كما أمكن

بهذا النظام مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ، إذ كان الفقيه يوكل بكل مجموعة متاسبة القوى عريفاً).

ووفقاً لرأي عبد العزيز أمين، فإن نظام العرفاء هذا قد عرفته التربية في السودان كطريقة للتدريس قبل أن تعرفه أوروبا بأكثر من قرنين من الزمان. ومهما يكن من أمرٍ، فإن عهد الفونج بممالكه الإسلامية ظل لأكثر من ثلاثة قرون ينشر الثقافة العربية الإسلامية في أنحاء السودان المختلفة، قبل أن تتبدل الظروف السياسية في البلاد باحتلالها من قبل الأتراك المصريين.

النتائج والتوصيات:

في ختام دراسة الموضوع قد توصل الباحث لعدة نتائج هي:

أولاً: إن الهجرات العربية للسودان قد غيرت ملامح المجتمع رأساً على عقب، في شتى مناحي الحياة.

ثانياً: إن الهجرات العربية حملت معها الدين الإسلامي، فكانت العربية وسيط لغوي وثقافي في آنٍ واحد، قبل أن تكون العروبة عرق.

ثالثاً: الأثر الفعّال في مجال التربية والتعليم، الذي نشأ في سلطنة الفونج جاء مع الهجرات العربية والدين الإسلامي فكانت الوسائط التعليمية مثل المسجد والخلوة والزاوية صورة طبق الأصل لما هو موجود في البلاد العربية التي جاءت منها الهجرات العربية.

وبناءً على النتائج فقد أوصى الباحث بالآتي:

أولاً: تزويد المكتبات الجامعية السودانية بمزيد من الدراسات حول الموضوع.

ثانياً: تسليط الضوء حول الموضوع.

ثالثاً: تنشيط الوسائط التعليمية [المسجد والخلوة]، ودعمها بالمعينات الحديثة.

المصادر والمراجع:

1. **أبو القاسم النصيبي ابن حوقل، (ت 350هـ) صور الأرض، دار مكتبة الحياة – بيروت، (د.ت).**
2. **أبي بكر أحمد بن الخطيب البغدادي، فتوح البلدان، مطبعة النهضة المصرية القاهرة، 1973م.**
3. **تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج1، (د.ت).**
4. **حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1984م.**
5. **سر الختم عثمان، أعلام التربية الإسلامية في السودان "أولاد جابر"، الأمانة العامة للشئون الدينية والأوقاف – الخرطوم، المطبعة الحكومية، 1975م.**
6. **سلوى إبراهيم عمر علي والفاتح الشيخ يوسف، ورقة علمية بعنوان: (الهجرات العربية إلى السودان وآثارها السياسية والاجتماعية) مؤتمر نظم الحكم والإدارة**

في الدولة السنارية) – جامعة الجزيرة، (2 – 2017/8/3م).

7. عادل علي وداعة عثمان، الصراعات القبلية ودورها في تفكك سلطنة الفونج، رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة النيلين، 1418هـ – 1998م.

8. عبد العزيز أمين، التربية في السودان من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها، المطبعة الأميرية – القاهرة، 1949م، [3 أجزاء].

9. عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، ط2، دار الثقافة – بيروت،1967م.

10. علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، دار الفكر،1973م، ج1.

11. محمد جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، ج4، بيروت، بدون تاريخ.

12. محمد سعد داؤود، العروبة والإسلام في القرن الإفريقي، (د.ت).

13. محمد عبد الرحيم بن الفرات، تاريخ ابن الفرات، بيروت، 1938م، ج1.

14. محمد عوض محمد، السودان الشمالي سكانه وقبائله، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر – الخرطوم، 1951م.

15. محمد نور ود ضيف الله، الطبقات، تحقيق يوسف فضل، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1971م.

16. **المسلمي كمال الدين الحاج أحمد، نظام التعليم في دولة الفونج، كلية التربية – جامعة سنار، ورقة بحثية، شوال 1437هـ، أغسطس 2016م.**

17. **نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ط2، ج1، دار الثقافة – بيروت،1972م.**

18. **يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان، جامعه الخرطوم، 2003م.**